

قسوة القلب نتائجها وعلاجها

هذا، فضلاً عن تأثر أكثر الناس عند سماع الدعاء والمناجاة ونحوها، ولكن البعض الآخر من قساة القلوب لا يتأثر عند سماعه الدعاء، بل ربّما يقول: إنّ هناك نقص في الدعاء نفسه، أو في المناجاة؟

وعند البحث عن علاقة ذلك نجدها راجعة إلى طبيعة القلوب، فالقلوب الطاهرة الزكية تخشع وتنكسر عند سماعها الأدعية والمناجاة، ولكن أصحاب القلوب المريضة والقاسية لا تؤثر فيهم هذه الأدعية والمناجاة.

ولكن بقي سؤال وهو: هل هناك نوع واحد من المرض الذي يصيب قلب الإنسان أم أنّ هناك أنواعاً كثيرة؟

الجواب هو أنّ هناك أمراضاً كثيرة ومختلفة، قد تحدّث عنها القرآن الكريم، منها: الرين والأفبال والطبع، وغيرها، وإليك بعض الآيات التي تحدّثت عن هذه الأمراض.

الأمر الأوّل: الرين

قال تعالى: {كَذَلِكْ يَلِ رَانَ عِلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، والرین هنا على وزن (عين)، وهو الصدأ الذي يعلو الشيء الجليل، وقيل: الشيء الذي يعلو القلب.

الامر الثاني: الصرف

قال تعالى: {صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}، المعنى: العقوبة التي يصرف فيها القلوب الالهية عن ذكره.

والأمر الثالث: الطبع

قال عز وجل: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عِلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}.

والطبع هو أن يصغ □ قلوبهم بصبغة غير صبغة □، وهي صبغة الهوى والدنيا.

والأمر الرابع: جعل الأكنة

قال تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِمْ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} ، وأكنة جمع كنان، وتعني الستار، أي أن الأمر لا يقتصر هنا على ستار واحد، بل أكثر من ستار.

والامر الخامس: الختم

قال □ تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً} ، قال الإمام الرضا (عليه السلام) في قوله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ...}: الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم، كما قال عز وجل: {بَلَّ طَيْعَ اللَّهِ عَلَىٰ هَاهُنَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}. [عيون أخبار الرضا (عليه السلام)] وقيل: إن الختم هو أشد من الطبع، وهو الأثر الذي يتركه الختام .

والأمر السادس: الاقفال

قال عز وجل: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}، والأقفال جمع قفل، وهي في الأصل من مادة القفول أي: الرجوع، أو من القفيل، أي الأشياء اليابسة [الأمثل في تفسير كتاب □ المنزل].

والامر السابع: التشديد

قال تعالى {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ}.

الامر الثامن: التغليف

قال عز وجل: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ} بل لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}.

والغلف جمع أغلف، أي: مغلف، أي تكون قلوبهم بعيدة عن نفوذ النور الإلهي.

والأمر التاسع: القسوة

قال عز وجل: {فَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ لِقَوْلِهِمْ 'مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ' } ، والقسوة هي عدم التأثر عند تألم أبناء النوع، أو عند مشاهدة تألم أبناء النوع.

وهذه هي الصور من أمراض القلب وأعراضه، وقد ذكرت بعناوين مختلفة كما لاحظنا في الآيات السابقة.

ونريد هنا أن نركز على عنوان القسوة في القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت (عليهم السلام)، فنحدث أولاً عن القسوة وأعراضها، ومن ثم علاجها وبيان أسبابها.

قسوة القلب

(حقيقتها - أسبابها - معالجتها)

أولاً: حقيقة القسوة

القسوة من الأمراض الروحية والذنوب القلبية التي يجب علاجها عقلاً وشرعاً أولاً والقسوة تقابل اللين والرقوة، بحيث إذا اتصف بها ابن آدم لم تحرّكه المشاهد التي تبعث الرقوة في القلوب، ولم تؤثّر فيه الأقوال التي يؤثّر سماعها في القلوب؛ ولذلك نبدأ هنا بالحديث عن معنى القسوة والآيات التي تتحدث في هذا الموضوع.

قيل إن القاسية مشتقة من القسوة، بمعنى الخشونة والصلابة والتجبر؛ لذلك تطلق صفة قاسية على الأحجار الصلبة، وقيل: للقلوب التي لا تظهر أي استجابة لنور الحق والهداية، ولا تلين ولا تستسلم لها، ولا تسمح بنفوذ نور الحق والهداية إليها .

إذن، القسوة هي الشدّة والغلظة في القلب، وهي نوع من أنواع الأمراض التي تعرض على قلب العبد، فيصبح لا يعي شيئاً حتى المشاهد التي تدعو القلب للرقوة والرحمة وتدعو العين للعبارة، فلا يتأثر بشيء ويسلب الإيمان بسبب قساوة قلبه، وكذلك الخوف، ولا يؤثّر فيه شيء من المشاهد التي توجب الرقوة

والحنان، بكاء الطفل اليتيم وشكاية الإنسان المظلوم، وسؤال الفقراء إليه وحتى سماع مشاهد يوم القيامة المرعبة التي يشيب فيها الرضيع، وتذهل كلُّ مرضعة عن رضيعها، ويصبح الناس سكارى وما هم بسكارى، من شدة هول هذا الموقف، ولكن الإنسان القاسي قلبه لا يتأثر بالشيء منها.

ثانياً: القسوة في القرآن

هناك آيات كثيرة تتحدث عن القسوة، بحيث تبين حقيقة هذا الذنب الذي حجب العبد عن مولاه، منها:

- 1- قوله تعالى: {قَسَتَ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.
- 2- قوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}.
- 3- قوله تعالى: {فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ}.
- 4- قوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}.
- 5- قوله تعالى {وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}.
- 6- قوله تعالى {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ}.

ثالثاً: القسوة في الأحاديث

الروايات التي تحدثت عن القسوة كثيرة جداً، ونذكر منها على سبيل المثال:

- 1- عن الإمام الباقر (عليه السلام): (إنَّ عَقُوبَاتِ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ ضَنْكٌ فِي الْمَعِيشَةِ، وَوَهْنٌ فِي الْعِبَادَةِ وَمَا عَذِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةِ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ).
- 2- عن الإمام علي (عليه السلام): (قلب الكافر أقسى من الحجر).

3- عنه أيضاً (عليه السلام) من وصيَّته لابنه الحسن (عليه السلام) قال فيها: (إنَّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك).

4- عن الإمام الصادق (عليه السلام): (موضع العقل الدماغ والقسوة والرقة في القلب).

5- عنه أيضاً (عليه السلام): (إعراب القلوب على أربعة أنواع: رفع وفتح وخفض ووقف، فرفع القلب في ذكر الله، وفتح القلب في الرضا عن الله، وخفض القلب في الاشتغال بغير الله، ووقف القلب في الغفلة عن الله).

رابعاً: القسوة في الأدعية

وإما إذا دققنا النظر في الأدعية المرويَّة عن أئمَّة الهدى (عليهم السلام) سوف نجد هذا المعنى موجوداً بين طيّات الكتب، ونذكر منها الشيء اليسير للفائدة:

منها: (اللهم إنني أعوذ بك من نفس لا تشبع ومن قلب لا يخشع).

ومنها: ما جاء في تعقيب صلاة العصر: (الهي قلبي محجوب ونفسي معيوب).

ومنها: ما جاء في مناجاة السالكين: (الهي إليك أشكو قلباً قاسياً مع الوسواس متقلباً).

ومنها: ما جاء في المناجاة الشعبانية: (إلهي هب لي قلباً يدنيه منك شوقه).

أسباب قسوة القلب

1. الغفلة

عن الإمام الصادق (عليه السلام): (أوحى الله عز وجلّ إلى موسى يا موسى لا تفرح بكثرة المال ولا تدع ذكري على كلِّ حال فإنَّ كثرة المال تنسي الذنوب، وإنَّ ترك ذكري يقسي القلوب).

2. الذنوب

كلاماً زادت ذنوب الإنسان زادت قساوة قلبه، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (يا موسى لا تطول في الدنيا أملك فيفسو قلبك والقاسي القلب مني بعيد).

3. طول الأمل

طول الأمل في الدنيا يقسي القلب، جاء في الحديث القدسي: (يا موسى لا تطل في الدنيا أملك فيفسو قلبك والقاسي القلب مني بعيد).

4. كثرة الأكل على شبع

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (لا تمتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلوب تموت كالزروع إذا كثر عليه الماء).

وعنه (صلى الله عليه وآله) أنَّهُ قال: (من تعود كثرة الطعام والشراب قسي قلبه).

5. كثرة الكلام في ذكر الله

كثرة الكلام في غير ذكر الله كالغيبة والنميمة والكذب والسخرية على الآخرين، فإنَّها تقسي القلب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (كان المسيح (عليه السلام) يقول لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله فإنَّ الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون).

6. كثرة النوم

عن الإمام الصادق (عليه السلام): (كثرة النوم تتولد من كثرة الشرب وكثرة الشرب تتولد من كثرة الشبع وهما يثقلان النفس عن الطاعة ويقسيان القلب عن الفكر).

7. الغفلة عن ذكر الله سبحانه وتعالى

قال الإمام الباقر (عليه السلام) لجابر الجعفي (رضي الله عنه): (إياك والغفلة ففيها يكون قساوة القلب).

عن المسيح (عليه السلام): (إنّ الدابة لم تركب ولم تمتهن وتستعمل لتصعب ويتغير خلقها وكذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت ويتبعها دؤوب العبادة تقسو وتغلظ).

9. استماع اللهو وطلب الصيد وإتيان باب السلطان

في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): ثلاثة يقسين القلب:

1. استماع اللهو 2. طلب الصيد 3. وإتيان باب السلطان.

وممّا ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّهُ قال: (أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب، وكثرة مناقشة النساء - يعني محادثتهن - وممارسة الأحقّق تقول ويقول ولا يرجع إلى خير [أبداً]، ومجالسة الموتى، فقيل له: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وما الموتى؟ قال كل غني مترف) [الخصال: ص228].

القسوة في لسان علماء الأخلاق

إذا رجعنا إلى كلام علماء الأخلاق سوف نجدهم يركّزون على موضوع القسوة، ينقل السيّد حسن الأبطحي عن أستاذه في الأخلاق أنّهُ قال: (إنّ قسوة القلب هي حجاب من الظلمة، بحيث يعيق حركة الإنسان نحو الكمال ولا يدعه يخطو خطوة واحدة أبداً).

ولا شك في أنّ القلب إذا غطاه صدأ حبّ الذات والأرحام والتعصّب القومي والجاهلي، فلن يكون فيه مكان لنور الإيمان ولا موضع للاختلاء مع الله ذي الجلال تعالى. [الأربعون حديثاً: ص147].

وقيل أيضاً: إنّ القسوة تنشأ بسبب بعض الأعمال الإنسانية والأعمال التي تؤدّي إلى اضمحلال وتفاؤل حتى الرحمة والشفقة، وقد قيل مثلاً إنّ الصيد وقتل الحيوانات يولد حالة من القسوة؛ ولذا فإنّ تجاوز الألم الإنساني والحيواني يؤدّي شيئاً فشيئاً إلى بروز القسوة في لبّ الإنسان.

وبعد أن عرفنا أسباب القسوة وما ينتج عنها، فإذا وجد الإنسان هذا المرض في قلبه فعليه أن يتخلّص منه وذلك عبر قنوات عدّة:

القناة الأولى: الرجوع إلى كلام المولى سبحانه وتعالى

القرآن الكريم هو شفاء لكل مرض يصيب الإنسان، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَوْكُّمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ} [يونس: 57] وهنا طرحنا الآية أربع صفات لعلاج مرض القلب: الصفة؛

الأولى: الموعظة

قال الراغب في المفردات: الوعظ زجر مقترن بتخويف. وقال الخليل: هو التذكير بخير في ما يرق له القلب أو هو النهي الممتزج بالتهديد.

والموعظة: هي التي يراها الإنسان أو يسمعها، ويكون لها تأثير في القلب.

الصفة الثانية: الشفاء

فشفاء الصدور وشفاء ما في الصدور كناية عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحية الخبيثة التي تجلب إلى الإنسان الشقاء وتنغص عيشته السعيدة وتحرمه خير الدنيا والآخرة. [تفسير الميزان: ج10، ص80]

وقيل: شفاء تلك التلوثات المعنوية والروحية التي في القلب.

الصفة الثالثة: الهداية

إن المقصود والهدف الذي خلق من أجله الإنسان هو معرفة الله تعالى التي تتم له عن طريق الهداية نحوه سبحانه وتعالى.

الصفة الرابعة: الرحمة

الرحمة هي النعمة المادية والمعنوية الإلهية التي تشمل حال الأفراد اللائقين.

قال الإمام علي (عليه السلام) من وصيته لابنه الحسن (عليه السلام): (أحي قلبك بالموعظة وأمته

بالزهد).

القناة الثانية: التقوى

عن الإمام علي (عليه السلام): (إنَّ تقوى الله دواء داء قلوبكم...) [نهج البلاغة، خطبة 198].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (إنَّ للقلوب صدأ كصدأ النحاس، فأجلوها بالاستغفار).

القناة الثالثة: الجلوس مع جمع العلماء

جاء في (تحف العقول) عن المسيح (عليه السلام): (يا بني إسرائيل زاحموا العلماء في مجالسهم ولو جثواً على الركب، فإنَّ الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر).

وعن الإمام علي (عليه السلام) قال: (لقاء أهل المعرفة عمارة القلوب ومستفاد الحكمة).

القناة الرابعة: الرحمة بالمساكين والأيتام

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما شكا إليه رجل قساوة: (قلبه إذا أردت أن يلين قلبك فاطعم المساكين وامسح رأس اليتيم).

وبهذا القدر نكتفي سائلين الله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول ويتَّبِعُونَ أحسنه.

اللهمَّ أتمم لنا أنوار معرفتك وأذقنا حلاوة عفوك وزاد معرفتك برحمتك يا أرحم الراحمين.